

أضواء جديدة على تاريخ الهكسوس

عصام السعيد (*)

اسم الهكسوس

نلاحظ أنَّ المصري القديم حينما أراد أن يشير إلى الهكسوس في النصوص المصرية سواء في تلك التي تتحدث عن طردهم، كما في نصوص لوحات كارنارفون وكامس الأولى وكذلك لوحة كامس الثانية⁽¹⁾ أو في النصوص المتأخرة كما في نص حتشبسوت في جدار معبدها في إصطبل عنتر، فكان يُشار لهم بكلمة عامو⁽²⁾. التي تعني «آسيوي» أو «سامي» وكذلك أتت بمعنى عبد سوري⁽³⁾.

أما تفسير كلمة «الهكسوس» من قِبَل ماينتو فهي تعني «ملوك الرعاة» لأنَّ «هيك» تعني في اللغة المقدَّسة «ملك» و «سوس» تعني في اللغة الدارجة «راعي». غير أنَّ هذا التحليل اللغوي غير صحيح في جزء منه، فكلّمة «هيك» تأتي من كلمة حقا بمعنى حاكم إلّا أنَّ كلمة «سوس» لا يمكن أن تكون قريبة من كلمة شاسو بمعنى رعاة أو بدو. والأكثر احتمالاً أنها اختصار لكلمة خاستيو بمعنى أجنبي⁽⁴⁾.

أما كلمة «الهكسوس» عند يوسف بن متى اليهودي فقد فسَّرها على أنها مشتقة من مصدر آخر بمعنى «الأسرى الرعاة» لأنَّ كلمة «هيك» تعني «أسير» وهو يفضَّل هذا الاشتقاق لأنه يعتقد بأنَّ قصة التوراة عند دخول الإسرائيليين إلى مصر ثم الخروج منها

(*) مدِّرس التاريخ القديم في جامعتي الإسكندرية وبيروت العربية - جمهورية مصر العربية.

(1) W. Helck: Historisch- Biographische, Texte Der 2, Zwischenzeit Und, Neue Texte Der 18 Dynastie, Wiesbaden, 1975, S. 83 - 89.

(2) Urk. IV, 390, 7.

(3) Wb. I, 167, 19 - 21.

(4) J. Vercoutter, et al.: The Near East: The Early Civilization, London, 1967, PP. 391 - 2.

بعد ذلك لها أصول في احتلال الهكسوس ثم طردهم فيما بعد⁽⁵⁾.

وهكذا يبدو جلياً أنّ اسم الهكسوس إنما يرجع إلى الكلمة المصرية حقا خاسوت بمعنى حاكم البلاد الأجنبية. وجمع هذه الكلمة حقا وخاسوت أي حُكام البلاد الأجنبية. وهي تخصّ حُكام الهكسوس وليس الجنس بأكمله. ولقد نعت الحُكام الهكسوس أنفسهم بلقب حقا خاسوت في ما خلفوه من آثار. ولعلّ من الأهمية أن نشير إلى أنّ الهكسوس كشعب نُعتوا في النصوص المصرية بأسماء نشأ بعضها عن الكره الذي ملا قلوب أهل البلاد لأولئك المتطفلين الذين احتلوا بلادهم، وأذوهم في دينهم فهم يصفونهم بالطاعون أو الوباء وتلك تسمية أساسها الكره والبغض من غير شك⁽⁶⁾.

موطن الهكسوس

كان هؤلاء الأجانب (الهكسوس) لا ينتمون إلى جنس واحد، ويبدو أنهم كانوا من عناصر آسيوية وسامية وكان أغلبهم يعيش منذ قرون عديدة على الحدود الجنوبية لفلسطين وشرق الدلتا؛ ويرتبط غزو الهكسوس بحركة هجرة واسعة حدثت في كلّ آسيا؛ فإنّ غزو الهكسوس لمصر يرتبط بالغزو الآري الذي حدث في الألف الثاني قبل الميلاد في منطقة الشرق الأدنى القديم التي كانت غير مستقرة فنرى أن الجوتيين في العراق تعضدهم أجناس وعناصر هندو أوروبية أخذت تتصدى لتوسع الامبراطورية السامية الأكديّة. وفي فلسطين بدأ التوسع العاموري في الظهور عن طريق تحالف هندو آري وسامي بدأ على شواطئ فلسطين حتى مدينة جبيل، ونتج عن هذا التحالف مركز قوي في مدينة ماري، وفي حوالي الألف الثاني ق.م. نجد أسرة عامورية تستقرّ في بابل وتقضي على العيلاميين ثم بدأ الزحف الحوري بقيادة عناصر هندو آرية مما أدّى إلى وجود تجمعات قوية. ثم حدثت الطامة الكبرى ألا وهي تغلغل الكاسيين في بابل جنوب العراق بقيادة العناصر الهندو آرية نفسها وذلك في حوالي 1740 ق.م.، وكان قد تمّ استقرار الحوريين في ميتاني، ويبدو أنّ هذه الشعوب في تحركاتها قد دفعت القبائل السامية التي كانت في طريقها عندما اتجهت إلى الغرب، وكلّ هذا ساعد على سرعة تقدّم الهكسوس نحو الجنوب ثم أضيفت إلى هذه القبائل السامية أجناس مختلفة قد تكون هندو أوروبية وهي التي توغلت داخل الحدود المصرية⁽⁷⁾.

ولقد اختلفت آراء العلماء في أصل الهكسوس وموطنهم الأصلي، فهناك فريق - ومنهم Junker - يرى في الهكسوس سلالة آرية كان موطنها في وسط آسيا⁽⁸⁾، وهناك فريق ثانٍ

(5) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، 7 إسرائيل، الكتاب الأول، الإسكندرية، 1978، ص 365 - 366.

(6) أحمد بدوي: في موكب الشمس، ج2، القاهرة، 1930، ص 297.

(7) J. Vercoutter: L'Égypte ancienne, Paris, 1963, P. 73.

(8) H. Junker: Geschichte der Ägypter, Berlin, 1933, S. 105.

S. Söderbergh: «The Hyksos Rule in Egypt» in: JEA 37, 1951, P. 59.

- ومنهم King- يرى أنهم من أعراب شبه الجزيرة العربية⁽⁹⁾.

وهناك فريق ثالث ومنهم باهور لبيب يرى أنهم من أصل ساميٍّ وموطنهم فلسطين وأنهم من طائفة اليهود الذين ورد ذكرهم في التوراة والقرآن الكريم⁽¹⁰⁾. أما Roth فالحكسوس في رأيه ربما كانوا ساميين⁽¹¹⁾، أما Van Seters فلقد اعتمد على بعض الحجج عن طريق أسمائهم ورأى أنَّ الهكسوس ينتمون إلى العناصر الحورية وكذلك إلى جماعات سامية غربية وبعض عناصر خليطة منهما⁽¹²⁾. أما Bietak فيرى في الهكسوس أنهم ساميون من عناصر أمورية وكنعانية من الساميين الغربيين⁽¹³⁾. أما Heick فلقد أكد بأنَّ الهكسوس حوريون اعتماداً على دراسة الأسماء⁽¹⁴⁾.

ونحن لا نعرف حتى اليوم من أين أتى الهكسوس وما موطنهم الأصلي وليس لدينا من شيء يُستدل به أو يوصلنا إلى نتيجة في ذلك إلا أن نعتمد على بعض البراهين الإسمية للهكسوس، وعلى بعض الجعارين وقطع الآثار.

ورأى بعض العلماء أنَّ العنصر الحوري كان من بين عناصر الهكسوس وكان ذا علاقة بإدخال الحصان والعربة في مصر⁽¹⁵⁾.

ويرى Van Seters أنَّ تطور العربة المصرية نتج ربما عن اضطراب الحرب في آسيا، وأنَّ الحصان من المحتمل أنه عُرِف في مصر منذ عصر الدولة الوسطى؛ وعلى هذا فإنَّ استخدام الحصان والعربة في مصر في عصر الهكسوس مماثل لاستخدام سوريا وفلسطين لهما من قِبَل الهنود آريين؛ لذا فمن الصعوبة أن نقبل بأنَّ الهنود آريين عنصر من عناصر الهكسوس، وعلى هذا فمسألة العربات يجب أن تسقط وتُغفل عند مناقشة أصول الهكسوس⁽¹⁶⁾.

لذا، فإنَّ كانت بعض الأسماء لملوك الهكسوس والأفراد ذات طابع ساميٍّ فهذا لا يجعلنا نجزم بأنَّ الهكسوس في مجملهم ساميون، ولاحمد بدوي حجة في هذا الأمر إذ يرى أنَّ أسماء نصارى مصر أكثرها أوروبية محضة - فهل هذا يشير إلى أنهم غير مصريين⁽¹⁷⁾!؟

L.W. King: *Studies in Eastern History, Egypt and Western Asia*, London, 1907, P. 134. (9)

باهور لبيب: لمحات من الدراسات المصرية القديمة، القاهرة، 1947، ص 41 - 45. (10)

C. Roth: *A short History of the Jewish people*, London, 1969, P. 5. (11)

J. Van Seters: *The Hyksos*, New Haven and London, 1966, P. 181. (12)

M. Bietak: «Hyksos» in: *LÄ III*, 1980, SP. 95. (13)

W. Heick: *Die Beziehungen Agyptens Zu Vorderasien im 3. Und, 2 Jahrtausend Vor Chr.*, Wiesbaden, 1962, S. 102 FF. (14)

E.A.Speiser: «Ethnic Movements in the Near East in the Second, Millennium B.C.», *AASOR* 13, 1933, PP. 49. (15)

J. Van Seters: *Op. Cit.*, PP. 184 - 185. (16)

أحمد بدوي: في موكب الشمس، المرجع السابق نفسه، ص 300. (17)

وهناك الرأي الذي يرى أنَّ الهكسوس ليسوا شعباً له جنسه المعين الخالص، وإنما هم مجموعة من الشعوب التي سكنت مناطق آسيا القريبة التي اضطرت إلى أن تهاجر من أوطانها تحت ضغط أقوام أتوا من هضبة أرمينيا وعرفوا في التاريخ باسم قبائل الخوريين واستقروا حوالي عام 2000 ق.م. في مناطق نهر الفرات الشمالية أي في شمال سوريا. ولقد تزعم هؤلاء الخوريون قادة ينتمون إلى الجنس الآري وتمكّنوا من أن يقيموا دولة في شمال سوريا ظهرت في عصر الدولة الحديثة تحت اسم «دولة ميتاني» ثم أدّت غارة الخوريين هذه على مناطق سوريا الشمالية واستقرارهم فيها، إلى نشر الفزع والرعب في سكان سورية وفلسطين فهرب الكثير منهم واندفعوا نحو الجنوب ووصلوا في هروبهم إلى مصر⁽¹⁸⁾.

فلو أردنا مناقشة هذه الآراء القريبة من بعضها أحياناً والمتضاربة أحياناً أخرى، لوجدنا أنَّ بعضها يجعل الهكسوس آريين وبعضها يجعلهم ساميين من أعراب شبه الجزيرة العربية أو من فلسطين وبعضها يجعلهم خليطاً من هؤلاء وأولئك⁽¹⁹⁾. ولعلّ الرأي الذي يجعلهم خليطاً من شعوب شتى أقرب الآراء إلى الصواب.

وهكذا استطاعت مجموعة مختلفة الاجناس والطبائع قادمة من الاناضول ومن اعلی الفرات بالإضافة إلى من انضم إليهم من سوريا وفلسطين من اختراق الحدود المصرية والسيطرة على شرق الدلتا تماماً. وكانت النتيجة التي تركّبت على ذلك أنَّ أسماءهم التي وصلت إلينا ونقول عنها إنها أسماء الهكسوس تُنبئ عن خليط من عناصر من اجناس مختلفة⁽²⁰⁾. وإنهم ليسوا من شعب واحد وإنما من شعوب متعدّدة، وإن غلبت على أسمائهم الاسماء السامية فإننا نجد أيضاً أنَّ فيهم عناصر غير سامية ولا شك في أنَّ بعضها «كاسي»، والبعض الآخر «حري» وكلا الجنسين من أصل هندو - أوروبي نزل في أواسط آسيا⁽²¹⁾.

وأيّ ما كان الامر فمن المرجّح أنَّ الوجود الهكسوسي في مصر كان نتيجة تسلل بشري أكثر منه نتيجة غزو حربي، وأنه قد استغرق عدة أجيال استطاعت العناصر المتسللة في نهاية الامر أن تسيطر على الدلتا ومصر الوسطى وأنّ المتسللين لم يكونوا من جنس واحد⁽²²⁾.

دخول الهكسوس إلى مصر

طبقاً لما ادّعى به ماينتو عن الأسرة الثالثة عشرة واحتمال أنَّ وادي النيل أيضاً قد

(18) الكسندر شارف: تاريخ مصر، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة، 1960، ص 107.

(19) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة، 1976، ص 132.

(20) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص 136.

(21) أحمد فخري: مصر الفرعونية، القاهرة، 1960، ص 245.

(22) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص 136 - 137.

أخضع بواسطة مغامرين أجانب، أصولهم يُبحث عنها في آسيا، لكننا لا نعرف كيف حدث هذا حتى الآن ولم تسعفنا الوثائق المعاصرة للأثار بكيفية دخول الهكسوس إلى مصر، لكن قد يكون هناك تخمين أنَّ هناك نصراً سهلاً ظاهراً يرجع إلى الضعف السياسي لمصر أكثر من تفوق المحاربين الهكسوس؛ إنَّ ارتضينا أنه كان غزواً.

وفي الغياب الكلي للنصوص المعاصرة التي تبين إقامة أولئك الحُكَّام الهكسوس، فقد حصل العلماء على معلومات عن تلك الفترة من وثائق متأخرة. ولا يزال حديث ماينتو عن إقامة ودخول الهكسوس إلى مصر الوثيقة الوحيدة التي تصف ذلك الحدث⁽²³⁾. فيزعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متى (أوفلافيوس يوسفوس) في مجادلاته ضد ايبيون أنه يروي الكلمات الحقيقية عن ماينتو إذ يقول: «في عهد الملك توتي مايوس لسبب لا أعرفه حلت بنا آفة من الله، وفجأة تقدّم في ثقة بالنصر غزاة من إقليم الشرق من جنس غامض إلى أرضنا، وقد استطاعوا بقوتهم الاستيلاء عليها دون مجهود وعندما تغلبوا على حُكَّام الأرض أحرقوا مدننا بوحشية، ودمروا دور عبادة الآلهة، وعاملوا كلَّ الناس بقسوة بالغة، فذبخوا بعضهم، واستعبدوا نساء وأطفال غيرهم، وأخيراً عَيَّنوا من بينهم ملكاً يدعى سالتيس وقد كان مقره في منف، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى وكان يخلف وراءه حاميات في الأماكن الهامة⁽²⁴⁾».

ولقد اتخذ الحُكَّام الهكسوس بجانب لقبهم حقاً خاسوت الألقاب الملكية المصرية، ولقد حدث هذا الغزو في عهد توتي مايوس الذي يُحتمل أن يكون دي دي - مسو من الأسرة الثالثة عشرة⁽²⁵⁾، ذلك لأنَّ قوة الحكومة المصرية ضعفت تدريجاً في تلك الفترة، لذا نرى أنَّ قوائم الملوك الأخيرة والآثار المعاصرة تشير إلى ارتباك في عدد صفار الملوك المعاصرين الذين حكموا، وكانت مصر في هذا الوقت في حالة فوضى وثمره ملائمة لأي فرد أن يضمها دون أي مجهود كبير، وربما كنتيجة للاضطرابات في سورية في ذلك الوقت؛ فقد نزح الآسيويون إلى الدلتا وسرعان ما نصَّبوا أنفسهم كحُكَّام إقليميين هناك في وسط العديد من الحُكَّام سريعى الزوال لهذا العصر⁽²⁶⁾.

ولقد اعتبر المصريون القدماء أنَّ هذا الاحتلال الأجنبي أكبر إهانة لهم في أن تُحكم بلادهم بواسطة الأجانب القادمين من آسيا وما ترتب عليه من تغيير حقيقي أحدثته هذه

D.B. Redford: «The Hyksos Invasion and Tradition» in: *ORIENTALIA* 39, 1970, P. 1. (23)

W.C. Waddle: *Hametho*, London, 1940, PP. 79 - 83. (24)

M. Bietak: «Hyksos» in: *LÄ III*, 1980, SP. 93;

S. Söderbergh: «The Hyksos Rule in Egypt» in: *JEA* 37, 1951, P. 56.

H. Bietak: «Hyksos» in: *LÄ III*, Op. Cit., SP. 93; (25)

J. Pirenne: *Histoire De la Civilisation De L'Egypte Ancienne*, Tome 2, Paris, 1962, P. 138.

S. Söderbergh: Op. Cit., P. 55. (26)

السيادة الأجنبية في النفسية الوطنية⁽²⁷⁾؛ ذلك لأن الشيء الجوهري في حكم الهكسوس لمصر هو أن هذه البلاد، وللمرة الأولى في تاريخها ترى نفسها وقد هزمها واحتلها أجنبي، وكان هؤلاء الأجانب في نظر المصريين أنجاساً ومعجاً مكرومين⁽²⁸⁾.

ويرى ولسون أن عدم وجود وثائق مكتوبة من عصر الهكسوس إنما يرجع إلى أن هذا الغزو ذو أثر سيئ على سير الحضارة المصرية وأن إغفال ذكره في الكتابات المصرية إنما يرجع إلى طبيعة وغرض النصوص المصرية نفسها، فهي كانت تهدف إلى تسجيل ما هو خالد، ولم تُعَنِّ بالاشياء الزائلة وكانت لا تهتم إلا بما يُخلد مظاهر الحياة التي شعروا بأنها تمثل خير تمثيل ما يريده الآلهة لمصر، فلماذا لم تستسغ عقليتهم أو نفسيّتهم أن يكون هناك ما يدعو إلى تسجيل إذلال وطني لهم⁽²⁹⁾. ذلك أنه لم يكن من طبيعة المصريين القدماء دون شك أن يضخموا الهزيمة والخضوع على أيدي الآخرين، فقط الانتصارات والتخلص من الخضوع الذي كان يدون في كتاباتهم⁽³⁰⁾.

ومما خلفه المصريون عن هذه المحنة برديه سالييه التي سنتحدث عنها فيما بعد وكذلك نقش كُتِبَ بعد قرن تقريباً عن طرد الهكسوس من مصر للملكة حتشبثوت (1490 - 1468 ق.م.) هذا النص قد نُحِتَ على واجهة معبدها المنحوت في الصخر في بني حسن (أسطبل عنتر Speos Artemidos) وفيه إشارة عن للهكسوس حيث تقول:

«لقد أصلحت ما خرب، وأقمت كل ما هو غير كامل سابقاً منذ أن كان العامو (الهكسوس) في وسط حوت وعرت (أفارس) في الأرض الشمالية»⁽³¹⁾.

وعلماء المصريات لم يتفقوا على رأي. هل كان دخول الهكسوس إلى مصر غزواً أم تسلاً، فحديث ماينتو وإصراره على الغزو العسكري المفاجئ للدلتا كان واضحاً حتى إن جيلاً من العلماء بإدراك أو بدون إدراك سمحوا لأنفسهم بالتأثر به⁽³²⁾. فمن يرى أن غزو الهكسوس لمصر قد وجد مقاومة عنيفة من أهل الدلتا فلدينا من الأدلة ما يثبت تلك المقاومة، ومن ذلك تلك الجبانة التي عثرت عليها مصلحة الآثار بالقرب من كوم الحصن وترجع إلى عصر الهكسوس وتتميز بأن أصحابها كانوا في حالة حرب ونضال وأن كلاً منهم اصطحب معه إلى العالم الآخر أدواته الحربية الكثيرة التي فضّلها على أي متاع آخر من الدنيا⁽³³⁾.

لكن بعض العلماء حاولوا دراسة أحوال مصر في نهاية الأسرة الثانية عشرة وكذلك

J. Wilson: «The Hyksos in Egypt» in: ANET, 1969, P. 230.

(27)

Id.: The Culture of Ancient Egypt, London, 1963, P. 160

(28)

Ibid, PP. 158 - 9.

(29)

J. Wilson: «The Hyksos in Egypt» in: ANET, P. 230.

(30)

J. Wilson: Op. Cit., P. 231;

(31)

BAR II, 303.

D.B. Redford: Op. Cit., P. 3.

(32)

عبد المنعم أبو بكر: كلفاحنا ضد الغزاة - العصر الفرعوني، القاهرة، 1957، ص 27 - 28.

(33)

في الاسرة الثالثة عشرة، ولاحظوا ازدياد أعداد الآسيويين في الدلتا حيث أوجدوا لهم وطناً في مصر، وقد كان هذا التسلسل لأناس من غرب آسيا وقد استمرّ لعدة أجيال⁽³⁴⁾.

ولقد اقترح بعض العلماء أنّ تسلسل الهكسوس إلى مصر إنما بدأ في الاسرة الثانية عشرة، ومثال ذلك هذا الشيخ - الذي جاء معه سبعة وثلاثون آسيوياً وأحضروا معهم منتجاتهم إلى مصر - الذي صوّر في مقبرة خنوم حتب في بني حسن وهذا الشيخ يدعى ابشا وكان لقبه h3k3 h3swt حاكم البلاد الأجنبية، ولعله بذلك يصوّر جماعة من تلك الجماعات الآسيوية التي بدأت تتسرب إلى الدلتا وحتى الاسرة الثالثة عشرة، إلا أننا لا نملك من الشواهد ما يدفعنا إلى أن نعتبر هؤلاء الذين صوّروا على مقبرة خنوم حتب قبل الهكسوس بقرنين أو ثلاثة هم أنفسهم الهكسوس فيما بعد⁽³⁵⁾.

يرى بعض العلماء أنه لم يكن هناك غزوٌ بالمعنى المفهوم وإنما كان تسلسلاً من بعض عناصر آسيوية إلى الدلتا على أثر تعرّض منطقة الشرق الأدنى القديم لأحداث كثيرة متتالية، فقد قضت بابل على الممالك المجاورة كما أنّ المملكة الكاشية أخذت هي الأخرى تتطلع إلى غزو الاقطار المجاورة لها بينما أخذ الحوريون أو «الميتانيون» يستولون على بعض البلاد السورية، ولا شك في أنّ هذه التحركات كانت ذات أثر في هجرة وتسلسل الكثير من العناصر الآسيوية التي استقرت جموعها في المنطقة الأقرب لمواطنها الأصلية أي في شرق الدلتا على الأرجح، ولم يمضِ عى استقرارهم وقت طويل إلا وأصبحوا قوة يخشاها المصريون واستفحل خطرهم وزاد إلى أن تمكّنوا من فرض سلطانهم على مصر⁽³⁶⁾.

وكانت الخطوة الكبرى في ذلك هي احتلال حوت وعرت (أفارس) وفرض سيطرتهم على المناطق الشرقية من الدلتا، وقد تطلّب منهم امتداد نفوذهم حتى منف أكثر من ستة وأربعين عاماً كانوا أثناءها يسيطرون على مقاطعات الدلتا ما عدا المناطق الغربية منها حيث كانت الاسرة الرابعة عشرة تحكم هناك في سخا⁽³⁷⁾.

ومن المحتمل أنّ ملوك الاسرة الثالثة عشرة قد نجحوا في الحدّ من تقدّم الغزاة فترة طويلة في الدلتا ولم يستطع الهكسوس إلا في نهاية هذه الاسرة أن يبدأوا مرةً أخرى تقدمهم نحو الامام وأحرزوا النصر بسهولة وذلك للأسباب التالية :

1 - حارب الهكسوس خصماً أضعفته السنون الطويلة من الفوضى والاضطراب ومن ناحية أخرى كانت الإدارة المصرية في حالة سيّئة تماماً من حيث التنظيم.

W. Helck: Die Beziehungen Agyptens Zu Vöderasien im 3. Und. 2. Jahrtausend Vor Chr., Wiesbaden, 1962, S. 79FF; (34)

J. Van Seters: Op. Cit., P. 87ff.

S. Söderbergh: Op. Cit., P. 56; (35)

C. Aldred: The Egyptians, London, 1989, P. 139.

محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت، 1981، ص 150 - 151. (36)

J. Vercoutter and others: Op. Cit., PP. 392 - 393 cf. J. Pirenne: Op. Cit., P. 141. (37)

2 - أنَّ الجيش المصري قد غلب على أمره بواسطة الغزاة الجدد الذين كانوا يمتلكون عدَّةً وعتاداً عظيماً وقوَّةً حربيَّةً تفوق بكثير قوتهم، وذلك بفضل معرفتهم استخدام الخيول والعربات الحربية التي أدخلت في آسيا بواسطة الآريين منذ قرنين أو ثلاثة من قبل. واستعملها بعدهم الهكسوس ولنا أن ندرك مدى فزع المصريين وجزعهم عندما كان عليهم أن يواجهوا لأول مرة هذه العربات المقاتلة⁽³⁸⁾، وإن رأى البعض أنَّ هذا التكنيك الحربي لم يستخدمه الهكسوس إلاَّ عند صراعهم الأخير مع المصريين قبل أن يطردوا من القطر⁽³⁹⁾.

3 - ضعف التحصينات التي شيدها ملوك الأسرة الثانية عشرة على حدود مصر الشرقية⁽⁴⁰⁾.

4 - واستخدام الهكسوس لأسلحة متنوعة ما بين يدوية وقاذفة كالسيف القاطع وبطله الحرب والهرأوة والحربة والسهم والمقلع والقوس والكرات الصغيرة⁽⁴¹⁾.

وهكذا يوجد لدينا رأيان في ما يتصل بوجود الهكسوس في مصر، الأول: ويتَّجه إلى أنَّ وجود الهكسوس في مصر، إنما كانت نتيجة غزو مسلح بينما يذهب الرأي الثاني إلى أنَّ الأمر لا يعدو أن يكون تسلاً لمجاميع من شعوب مختلطة قدمت من غرب آسيا - ولعدَّة أجيال متتالية - وأنَّ تقرير ماينتو إنما كان متأثراً بالغزوات التي وقعت على البلاد في وقت قريب نسبياً من أيام ماينتو على رأي⁽⁴²⁾ أو أنَّ السبب في ذلك هو التحريف في الكتابات حيث تصوّر فترة من الخراب والفوضى ملوَّنة بكثير من المبالغة بالأوان مغرية تُستخدم في العادة لتمجيد الحاكم الذي يُنسب إليه خلاص البلاد، وأخيراً فالرأيان متكاملان وليسا متعارضين: فوجود الآسيويين في الدلتا كان بادئ ذي بدء عن طريق جماعات تسلت إلى الدلتا بأعداد قليلة في فترات متباعدة، ونستطيع أن نتتبع هذا التسل في الاسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة، وبديهي أنَّ التسل لا يقاوم حين تكون على رأس السلطة حكومة ضعيفة. ثم سرعان ما ازداد التسل بمرور الزمن وبسبب الضغط الذي كان يزداد من شعوب أجنبية نازلة على سوريا، فضلاً عن أنَّ الدولة المصرية كانت في شبه انهيار مدى فترة من الزمن ربما منذ جيلين قبل وصول الهكسوس إلى السلطة في مصر، وهكذا استمرَّ الحال حتى جاء وقت حاول فيه الهكسوس فرض سلطتهم على البلاد كلها، وهنا بدأت المقاومة المصرية عنيفة، فقابلها الهكسوس بعنف أشد منها فأحرقوا المدن ودمروا المعابد، وانتهى الأمر باستيلائهم على منف - العاصمة المصرية القديمة - وقبضوا على السلطة بيد من حديد وفرضوا الجزية على المناطق التي أخضعوها، ومع ذلك فليس لنا أن نصدِّق أنَّ جحافل قوية من الغزاة الآسيويين انحدروا إلى الدلتا كالإعصار فاحتلوا منف

(38) رمضان عبده علي السيد: معالم تاريخ مصر القديم، الإسكندرية، 1979، ص 308.

S. Söderbergh: Op. Cit., P. 60.

(39) رمضان عبده: المرجع السابق، ص 309.

A. R. Schulman, «Chariots, Chariotry, And The Hyksos» in: JSSEA 10, 1980, P. 121.

D.B. Redford: Op. Cit., P. 3.

(42)

وأنزلوا بالاهلين كل لون من ألوان القسوة وهكذا، بدأت فترة جديدة من تاريخ مصر عرفت بـ «محنة الهكسوس»⁽⁴³⁾.

ولقد حاول يوسف بن متى أن يروِّج أنَّ قصة دخول بني إسرائيل إلى مصر ثم الخروج منها لها صلة بدخول الهكسوس مصر ثم طردهم بعد ذلك، وهو ما لا يتفق مع النصوص المصرية كما في نص طرد الهكسوس في مقبرة أحسن بن أبانا، كذلك إنكار جمهرة المؤرخين الصلة بينهما، ولقد حاول يوسف بن متى أن يرفع شأن قومه اليهود الذين كان يحقنهم الإغريق ويحطون من قدرهم، فأراد أن يبرهن للملأ أنَّ اليهود والهكسوس عنصر واحد وأنهم قد خرجوا من مصر حوالى ألف عام قبل حرب طروادة التي يراها الإغريق تاريخاً سحيقاً في القدم⁽⁴⁴⁾.

طبيعة حكم الهكسوس

إذا أردنا أن نتعرّف على طبيعة حكم الهكسوس يجب أن نلقي نظرة على الوضع السياسي في مناطق غرب آسيا التي تشمل سوريا وفلسطين والعراق القديم، وبما أنَّ الهكسوس طبقاً لكلام ماينترو ملوك أجنبية من فينقيا فمن الطبيعي أن ينعكس هذا على طبيعة حكمهم في مصر، فالاعراف السياسية والدبلوماسية الدولية الموجودة في الشرق الأدنى القديم والتي كشفت عنها سجلات ماري في علاقات الدول بعضها ببعض كلّها تدلّ على ذلك، إذ إنَّ كلّ المناطق التي تشمل سوريا وميزويتاميا وبابل وبعض اتحاد الدويلات الصغيرة كانت كلّ واحدة منها تحت قيادة مدينة مسؤولة من ملكها⁽⁴⁵⁾. ففي خطاب موجّه من «ايتور - اسدور» - أحد أتباع زيمري ليم ملك ماري (من حوالي 1782 - 1760 ق.م) - إلى الملك زيمري ليم يخبره أنه لا يوجد ملك قوي وحده، وأنَّ عشرة أو خمسة عشر ملكاً تبعوا حمورابي ملك بابل وأن نفس العدد تبع كذلك ريم سين ملك لارسا، ونفس العدد تبع ايبال بي ال ملك اشنونا، «واموت بي ال» ملك قطنة وعشرين ملكاً يتبعون «ياريم ليم» ملك يمخاد⁽⁴⁶⁾.

هذا يوضح أنَّ في هذه المناطق من الشرق الأدنى القديم والقريبة من مصر كانت هناك دويلات مستقلة متحالفة، وأنَّ هذا التحالف كان للممالك الصغيرة التي كانت تحت قيادة ملك واحد يعتبر «السيد» بالنسبة لهم جميعاً بينما تابع الملك له بعض السلطة على مدينته، وكان هذا التابع خاضعاً «للسيد» في الشؤون الأجنبية، وعلاوة على ذلك فمطلوب منه أن يمدد الملك «السيد الذي تبعه» بالقوات والعتاد وقت الحرب وأن يدفع الجزية للحماية⁽⁴⁷⁾.

(43) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة، 1976، ص 126 - 127.

(44) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (2) في مصر، بيروت، 1988، ص 267.

(45) J. Van Seters, Op. Cit., PP. 163 - 4.

(46) G. Dossin: «Les Archives Epistolaires du Palais de Mari» in: Syria 19, 1938, PP. 117 - 118;

J. R. Kupper: «Horthern Mesopotamia and Syria» in: CAH, Vol. II, Part I, Ch. I, P. 10.

J. Van Seters, Op. Cit., P. 163.

(47)

ولهذا كان لحكام هذه الدويلات الصغيرة مصطلحات للتعبير والمراسلة بين حاكم لدولة يرأسل حاكماً لدولة أخرى مماثلة، وهناك تعبير عندما يرأسل حاكم لدولة تابعة لملك كبير، وهكذا فالملوك أصحاب المرتبة المتساوية يشيرون لبعضهم البعض «بأخي» بينما السيد الكبير يُشار له «بالوالد» والتابعين بالابن⁽⁴⁸⁾.

وعلى هذا فمع قلة المعلومات من عصر الهكسوس لكنها تشير إلى ارتباط الأعراف السياسية بين مصر في عهد الهكسوس وبين العالم البابلي القديم، فهكذا كان حكم الهكسوس جزء من هذه الظاهرة السياسية نفسها؛ فالحاكم لمصر في هذا العصر من المحتمل أن يكون القائد الأعلى والسيد الكبير لعدد من التابعين في مصر وإن كان Van Seters يذهب إلى أبعد من ذلك إذ يرى أن الحاكم الهكسوسي الأكبر في مصر له عدد من الحكام الصغار التابعين له في مصر وأن بعضاً من هؤلاء التابعين في سوريا وفلسطين بل ربما كانت له تحالفات بحكام آخرين في سوريا⁽⁴⁹⁾ ويستند Van Seters في رأيه هذا على الأشياء الملكية التي تحمل أسماء خيان مثل غطاء البستر من المرمر وجد في قصر ميتون في كنوسوس وعثر عليه Sir Aurther Evans في عام 1901 وهو الآن موجود في متحف كانديا Candia⁽⁵⁰⁾ ويحمل الاسم الشخصي والاسم التتويجي في خرطوش واحد نثر نفر سوسر إن سارع خيان⁽⁵¹⁾ وتمثال صغير لأسد يحمل الاسم التتويجي له⁽⁵²⁾ سوسر إن رع⁽⁵³⁾ من بغداد، يوجد الآن في المتحف البريطاني تحت رقم 987⁽⁵⁴⁾، وهناك تمثال اغتصبه خيان من معبد في بوبسطة وموجود الآن في المتحف المصري في القاهرة قام بالكشف عنه Naville، كما عثر على كتلة من الجرانيت في الجبلين بالقرب من طيبة⁽⁵⁵⁾ كذلك عثر على اسم خيان في بوغاز كوى⁽⁵⁶⁾ وأختام في فلسطين؛ إذ يُعتقد بأن النفوذ المصري امتد حتى الحدود الجنوبية لفلسطين⁽⁵⁷⁾. على أن هناك من يرى فيها استمراراً للعلاقات بين مصر وجيرانها من دول الشرق الأدنى القديم⁽⁵⁸⁾ وهذا ما يميل إليه الباحث لأنه كيف يشيد

G. Dossin, Op. Cit., PP. 67 - 87. (48)

J. Van Seters, Op. Cit., P. 164. (49)

W. C. Hayes: «Egypt: From The Deth of Ammenes III to Se qenenre II»: in: CAH, Vol. II, Part I, Cambriode, 1973, P. 60; J. Vercoutter and other: Op. Cit., P. 395. (50)

H.R. Hall: The Ancient History of the Near East, London, 1963, P. 218.

S. Söderbergh, Op. Cit., P. 63.

J. Von Beckerath: Handbuch der ägyptischen Königsnamen, Munchen, 1984, S. 218. (51)

H.R. Hall: Op. Cit., P. 217. (52)

J. Von Beckerath: Op. Cit., S. 216. (53)

H.R. Hall: Op. Cit., P. 217. (54)

Ibid. 217. (55)

M. Bietak: Op. Cit., P. 94. (56)

J. Vercoutter and others: Op. Cit., P. 395. (57)

J. Van Seters: Op. Cit., PP. 164 - 165; (58)

M. Bietak: Op. Cit., P. 14.

الهكسوس قلاعاً من ناحية الشرق وحصّنوا الحدود الشرقية، فهل هناك من يحصّن مصر إذ كان يملكها ويملك ما وراءها وممن يخاف إذن، إن كان ما وراء الحدود ضمن أملاكه⁽⁵⁹⁾؟

ومن ناحية أخرى فالبعض يرى أن حُكّام الهكسوس الذين صوّرتهم المصادر المصرية كهمج مدمرين كانوا هم المسؤولون عن المعابد والأبنية والتماثيل واللوحات وأعمال الفن الأخرى من ذلك العصر التي لم تقلّ عن روائع فن الدولة الوسطى، ونلاحظ أن الهكسوس حاولوا أن يتكيّفوا مع الحضارة المصرية فتبنّوا ثقافة البلاد وطريقتها في الكتابة فكتب حكامهم أسماءهم بالهيروغليفية المصرية وحملوا الألقاب التقليدية للملوك المصريين واستعملوا أسماء تنويجية مثلهم؛ وأحياناً ادّعوا أسماء مصرية وأظهروا إعجابهم بالفن المصري عن طريق عدد من التماثيل والنقوش البارزة والأعمال الصغيرة والتي إما أنهم قد اغتصبوها وإما أنهم قد قلّدها. أضف إلى ذلك فيما يرى البعض أنهم عبدوا آلهة مصرية كما كانوا يتّجهون إلى عبادة الإله رع أو على الأقل كانوا يتظاهرون بذلك بالرغم من أن قصة النزاع بين سقنن رع واببي تُظهر عكس ذلك، فالملك خيان يعلن نفسه ابناً جسدياً لرع⁽⁶⁰⁾.

إلا أن الشيء الأساسي في حكم الهكسوس لمصر هو أن هذه البلاد للمرة الأولى في تاريخها ترى نفسها وقد هزمها واحتلها أجنب، وكان هؤلاء الأجانب في نظر المصريين أنجاساً وهمجاً مكروهين حكموا بدون الإله رع؛ ذلك أن الشعور بالطمأنينة بأن مصر لا يمكن أن يهاجمها أحد والذي كان حجر الزاوية في النظام المصري قد تحطم. ولم تصبح مصر في عزلة كما كانت حتى تستمرّ في تسامحها وخلو بالها، ذلك لأن حكم الهكسوس في مصر قد أنزل عليها ضربة كبرى أصابتها في ثقافتها بنفسها وأصابتها في إيمانها بأن الآلهة أعطوا مصر - ومصر وحدها - الحياة الطيبة إلى أبد الأبد، فإذا تمكّن البرابرة الأجانب الذين أهملوا العناية بآلهة البلاد إهمالاً تاماً من إذلال مصر فأي نوع من الأمن تستطيع الحياة أن تقدّمه بعد ذلك⁽⁶¹⁾.

وبدأ المصريون بعد ذلك يفتقون من غفوتهم ويؤمنون - مع الزمن - بأن عهد الشعور بالاطمئنان إزاء التهديد الأجنبي قد ولّى زمانه، ومن هنا فإنّ غزو الهكسوس لمصر لم يثر في نفوس القوم العاطفة الوطنية فحسب بل أيقظ كذلك الخطر القائم عند الحدود المصرية. ومن هناك أدرك المصريون أن حدودهم الطبيعية إنما تبدأ في سورية وبرقة بينما لا يقلّ نطاق الأمان من حولهم عن الشرق الأوسط تقريباً، ومن هنا كان توسع الإمبراطورية المصرية إلى حدودها القصوى - كلما أمكن ذلك - لم يكن استعماراً بالمعنى

(59) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، جزء 1، القاهرة، 1969، ص 406.

J. Vercoutter and others: Op. Cit., P. 400;

C. Aldred: Op. Cit., P. 141.

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, London, 1963, P. 162.

(61)

المفهوم وإنما لنشر السلام المصري، بل يمكن أن نزع بقليل من الخشية أن الإمبراطورية المصرية في جوهرها وفي معنى ما «إمبراطورية دفاعية» في الأساس حُتِّمتها ظروف الصراع الإقليمي والاستراتيجية العريضة في الشرق الأدنى القديم، وتنطلق مصر - امتداداً لهذا المنطق في الاتجاه نفسه وتستطيع تكوين إمبراطوريتها العريضة والتي تبلغ اتساعها وقوتها في عهد الملك تحوتمس الثالث ليستمر المد المصري حتى عبر الفرات ويصل إلى تخوم الأناضول كما يسيطر على كل سواحل وجزر البحر الأبيض المتوسط⁽⁶²⁾.

عاصمة الهكسوس حوت وعرت (أفاريس)

يرى بعض الباحثين أن حوت وعرت عاصمة الهكسوس تكون تانيس الحالية⁽⁶³⁾؛ بل رأى البعض في كل من حوت وعرت وبى رمسيس وتانيس مدناً متعاقبة في مكان واحد هو تانيس (صان الحجر حالياً)⁽⁶⁴⁾. وإذا أردنا تفسيراً لمعنى اسم عاصمة الهكسوس (حوت وعرت) فالجزء الأول من الاسم المكوّن من علامة حوت الذي يمثل جداراً عالياً من الطوب لمدينة أو قرية قاطنة بالسكان⁽⁶⁵⁾ أما الجزء الثاني من الكلمة وهو وعرت فقد استخلص Gardiner أنها قطعة صحراء وأشار إلى أن الموقع كان على حدود الصحراء⁽⁶⁶⁾ وإن رأى Kees - حسبما ذكر لبيب حبشي - أنها تلال مرتبطة بأرض الصحراء حول تانيس⁽⁶⁷⁾. لكن Van Seters لم يتفق على كلتا الترجمتين ولم يعط ترجمة مقنعة إذ ترجمها بـ «المركز الرئيسي للمنطقة» باعتبارها المركز الرئيسي للمنطقة في الشمال⁽⁶⁸⁾. هذا، وإن كان لبيب حبشي يرى أن من الواضح أن كلمة wcr تعني الهاربة ربما إشارة إلى الحاكم المحلي للمدينة الهاربة⁽⁶⁹⁾. ولقد رأى Van Seters أن عاصمة الهكسوس تقع في الختاعة قنطير وحاول أن يثبت مطابقة الختاعة قنطير بـ بى رمسيس وتبعه كذلك لبيب حبشي في محاولة لمطابقة الختاعة قنطير بـ بى رمسيس⁽⁷⁰⁾، ويذكر Bietak أن بعض العلماء من اقترح أن تكون الهكسوس تقع في تانيس وأن يكون القصر الملكي في الختاعة قنطير⁽⁷¹⁾.

(62) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة، ص 157.

A.H. Gardiner: *Egypt of the pharaohs*, Oxford, 1964, P. 164. (63)

P. Montet: «La Stele du Roi Kamase» in: *CRIABL*, 1956, P. 118. (64)

J. Cerny: «The true form of the Name Snofru» in: *RSO* 38, 1963, P. 89. (65)

A.H. Gardiner: «The Defeat of the Hyksos by Kamose, The Carnarvon Tablet, No 1» in: *JEA* 3, 1916, P. 100. (66)

L. Habachi: *The Second Stela of Kamose and his struggle against the Hyksos Ruler and his capital*, ADAIK 8, Glückstadt, 1972, P. 63. (67)

J. Van Seters: *Op. Cit.*, P. 149. (68)

L. Habachi: *The second stela of Kamose and his struggle against the Hyksos and his capital*, ADAIK 8, Glückstadt, 1972, P. 63. (69)

J. Van Seters: *Op. it.*, P. 137F. (70)

M. Bietak: *Avaris and Piramease*, Oxford, 1979, P. 13. (71)

أما Stadelmam في مقالة له عن حوت وعرت نجده يعرض الآراء التي دارت حول موقع عاصمة الهكسوس ما بين تانيس، والختاعة قنطير وتل الضبعة دون تحديد المكان بالضبط⁽⁷²⁾. أما الدكتور فاروق جمعه فيقترح بحذر أن تكون عاصمة الهكسوس تقع عند تل الحيروتل حبوة⁽⁷³⁾، وأخيراً فيرى Bietak أن عاصمة الهكسوس حوت وعرت تقع ما بين الختاعة قنطير وتل الضبعة⁽⁷⁴⁾.

R. Stadelman: «Auric» in: LÄ I, 1975, SP. 553.

(72) معادته شلهية بين الباحث والدكتور فاروق جمعة.

M. Bietak: Op. Cit., P. 12.

(73)